

الماء في القرآن:

رمزيته وأسسها المعرفية

دانتي كابونيرا* Danti Kabonira

القرآن هو الكتاب بامتياز، كلام الله المنقول إلى الرسول محمد (ص) بوساطة الملاك جبرائيل. ويتضمن 114 سورة غير متساوية الطول. وكل سورة مكونة من آيات (إشارات من الله). الماء بالنسبة للقرآن هو عنصر الخلق الأساسي، وغالباً ما يتردد - نحو 36 مرة - ويذهب البعض إلى حد القول بـ «هوس» أو «افتتان» الكتاب المقدس بهذا العنصر. في هذه المقالة تلقي الباحثة الإيطالية دانتي كابونيرا المزيد من الأضواء على الماء كاطروحة قرآنية. «مدارات غريبة»

في الثقافة العربية، لا يبدو هذا الإهتمام المتعاطف بالماء في النص المقدس مثيراً للعجب. ففي مقاربتة الشهيرة «الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي»، يكتب البروفسور محمد بن عبد العزيز: «يكفي القول بأن العرب يكرسون له شغفاً كبيراً ويعلقون كثيراً من الأمل على قدومه، حتى نقدر وبحق أن نصفهم بـ «أولاد ماء السماء». عند العرب والمسلمين، أفضل شيء يمكن أن نتمناه لمن ننتظر منه أن يقدم لنا معروفاً «أن يسقيه الله». وهم يفكرون في أيام دعة وسكينة، حيث تجد النفوس الطمأنينة، وتوصف بـ «مسقى الله» أي «مرواة من الله». وحتى أولئك الذين، في بداية الإسلام، كانوا يتحدونه أن يحقق معجزات على صلة بالماء! «وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً». (الإسراء 90 - 91) ⁽¹⁾.

الأمر الذي يذكر بالتوراة حين أمر الرب (L'Eternel) موسى: «مر أمام الشعب وخذ معك من شيوخ إسرائيل وعصاك التي ضربت بها النهر، خذها بيدك واذهب. ها أنا قائم أمامك هناك على الصخرة (في حوريب)، فتضرب الصخرة فانه يخرج منها ماء فيشرب الشعب». ففعل موسى كذلك على مشهد شيوخ إسرائيل (سفر الخروج، 17/ 5-6).

* باحثة إيطالية.

تقرير قدم لمعهد Veolia
للبيئة، حزيران/يونيو 2006

ترجمة: عفيف عثمان

والعهد القديم، من جهته، يسم غالباً الماء (اللاويين، التكوين I و I) تارة

بالمعنى الحرفي وطوراً بالمعنى المجازي. فالماء «مخلوق الله» و«نعمة إلهية»، لكن غيابه يمنع المؤمنين من إتمام فرائضهم من جهة، ويحمل في إثره من جهة أخرى الجفاف والأسى.

ويشير القرآن إلى الطوفان فيقول في السورة الآتية: «إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية». (الحاقة، 11).

ويضيف في سورة أخرى: «فكذبوه فأنجيناهم والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين». (الأعراف، 46).

وأخيراً في سورة هود: «وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين». (هود، 44).

ويؤكد الكتاب المقدس أن الماء، وبوساطة الإرادة الإلهية، هو الأساس الوحيد لظهور الحياة: «... وجعلنا من الماء كل شيء حي». (الأنبياء، 30).

تشدّد الصلة القرآنية الخاصة بتشكيل الكون على الماء، كما تبين ذلك آيات أخرى من السورة السابقة التي تُعدّد من جهة: السماء والأرض والقمر والشمس والنهار... كعناصر طبيعية لنشوء الكون ومن جهة أخرى على عنصر واحد ووحيد لنفخ الحياة: الماء.

ويؤكد القرآن أيضاً بأن الماء يملأ الكون الجامد بالحياة: «وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء...». (هود، 7). يعني ذلك، عند بعض المفسرين² بأن أصل السماء والأرض هو الماء ومنه أخذ الله العنصر الطبيعية كما الكائنات الحية. والماء لا يغيب عن الحجارة والصخور. على هذا النحو، في سورة البقرة: «... وإن من الحجارة لما يتفجر منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله...». (البقرة، 74).

ويعلمنا القرآن: «والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير». (النور، 45).

فكل حياة على الأرض تدين في وجودها لهذا العنصر السائل: «ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها...». (الروم، 24). نجد خاصية الإحياء هذه في آيات عدة: «وهو الذي أرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً * لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعماً وأناسي كثيراً * ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً». (الفرقان، 48، 49، 50).³ أو أيضاً «ونزلنا من السماء ماء

يشدد القرآن على العلاقة بين تكوين الفضاء والماء وذلك بحسب ما تشير إليه الآيات في سورة الأنبياء التي تعدد العناصر الطبيعية للتكوين وهي السماء والأرض والقمر والشمس والنهار والليل، من جهة، والماء باعتباره العنصر الأوحّد الذي يبعث الحياة، من جهة أخرى.

مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد * والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج». (ق، 8، 9، 10، 11).

الصلة القرآنية بالخلق متوجة طبيعياً بالكائن الإنساني، كما تؤكد الآية من سورة الفرقان: «وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً». (الفرقان، 45).

نرى بحسب القرآن أن الماء هو ائمن مخلوقات الله⁽⁴⁾، وفي الواقع، الماء في الكتاب المقدس في خدمة الإنسان: «الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار». (ابراهيم، 32). ويضع الله النباتات في تصرف الإنسان، بفضل الماء: «الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى». (طه، 53). وأيضاً: «والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها». (النازعات، 30-31).

يبين جاك بيرك من خلال سورة «الطارق» التي تدعو الإنسان إلى الخشوع: «فليُنظر الإنسان مم خُلِق * خُلِق من ماءٍ دافق». (الطارق، 65)⁽⁵⁾، إنها تعبر - إضافة إلى ذكر المطر - عن الطابع الدوري للطبيعة وعن البعث. ما دفع بيرك إلى القول معجباً: «إنه استحضار رائع يكتمل بالعودة السنوية للنباتات. هذه النباتات الحيوية لماشية البدوي العربي وخصوصاً لجماله».

ويحكم هذا الدور البارز للماء في القرآن، فإن هذا العنصر مُبارك، يمتلك خصائص مطهرة لدوره في تفتح كل وجود، وقد اسبغت عليه القداسة: «... إن يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام». (الأنفال، 11)⁽⁶⁾.

أو كما يُردد في سورة «ق» (الآيات 8 و9 و10 و11) (مذكورة آنفاً).

إنذاً، بالنسبة للقرآن، الماء هو رمز الحياة. وغيابه أو ندرته تعني بشكل عام الموت. ويكثر كتاب الإسلام المقدس من ذكر هذه الموضوعات: «والله أنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيةً لقوم يسمعون». (النحل، 65). وأيضاً: «... وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج». (الحج، 5).

بين الحياة والموت، يمكن الماء أن يُحدث الرخاء والغنى والسعة ويمكن له أيضاً أن يُحدث الشفاء، إذا غامرنا في استخدامه أو إدارته بمعرفة سيئة أو إذا لم نحمد الله على نعمه، فسورة الكهف تحذر: «فَعَسَى رَبِي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ

الماء، في القرآن، من ائمن ما خلق الله بعد الإنسان. ومن هذا المنطلق، فقد وضع الماء، كما جاء في الكتاب المقدس، في خدمة الإنسان.

ويرسل عليها حُسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً». (الكهف، 40-41). وسورة الملك أكثر وضوحاً: «قل أرءيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين». (الملك، 30).

يصدر المجاز عن التضاد بين ماء البئر المختفي في بعض الصدوع والماء المنبجس على وجه الأرض، وهو تضاد يُعاش على نحو مأساوي في بعض الحضارات⁽⁷⁾. في هذه السورة بالنسبة لبيرك إلماح ممكن للجفاف الذي ضرب مكة بعد الهجرة (16 تموز/ يوليو 2006)، وذلك حين هاجر الرسول بصحبة أوائل المؤمنين إلى المدينة تجنباً للإضطهاد والإغتيال.

بالنسبة إلى النص القرآني، لا يمكن تصور الحياة من دون ماء، فعدا وظائفه الحيوية، الأساسية للنبات والحيوان والبشر، فقد أحاطنا الله بجمالات طبيعية مجسدة في الأنهار والجبال المكلفة بالثلوج، والبحر مع ضفافه. وتوضح سورة الرعد: «وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن الثمرات جعل فيها زوجين اثنين...». «أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً...». (الرعد، 3 و17).

رضوان السيد، استاذ الفلسفة الإسلامية في الجامعة اللبنانية، يلاحظ انه في القرآن، وخلال وصف البحار والأنهار ومستويات الماء، لا تكشف أي خوف ذو صلة بالصحراء أو بنقص الماء أو الحياة في الوسط الجاف. فلما هو أحد نعم الله. وبالنتيجة، فإن ندرته ليست إلا علامة من علامات الغضب الإلهي، وثمره الإدارة السيئة من جانب البشر أو من مشاريعهم التي لم ينظر الله إليها بعين الرضا، حيث أن الله خلق كل شيء بمقدار من دون شطط وأيضاً من دون تقتير: «وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون * فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون». (المؤمنون، 18 و19). وحتى اليوم في بلاد الإسلام - كما عند اليهود - وفي حال الجفاف المستمر، تقام الصلوات كما في تونس أو في الجزائر خلال السنوات الأخيرة، والسلطات الرسمية نفسها تأخذ المبادرة⁽⁸⁾. وفي الجزيرة العربية قبل الإسلام وفي فترة الجفاف، كانت تقدم الأضاحي إلى ربه المطر «مناة» في مكة.

يدعو القرآن - يقول السيد - إلى الإدارة الرشيدة للماء وإلى التقاسم المنصف للموارد حين يقول: «ونبتئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب مُحْتَضِر». (القمر، 28)⁽⁹⁾.

بالنسبة للقرآن، العلامة الكبرى للأفضال الإلهية في هذا العالم السفلي، تظهر في المطر ومياه الأنهر. لكن الله يعاقب المشركين، «بتدمير آبارهم» كما ورد

يصدر المجاز عن التضاد
بين ماء البئر المختفي في
بعض الصدوع والماء
المنبجس على وجه الأرض،
وهو تضاد يُعاش على نحو
مأساوي في بعض
الحضارات.

في سورة (الحج، 45). وهو عقاب كبير، لأن عيون الماء في الصحراء بعيدة عن بعضها بعضاً وافتقاد الماء في هذه البيئة الجافة، يؤدي إلى الهلاك.

الماء والحياة الأبدية

بالنسبة للقرآن، هناك بكل تأكيد الحياة على الأرض، ولكن هناك أيضاً عالم الآخرة. حيث الماء أيضاً هو أفضل ثواب يقدمه الله للمؤمنين وللذين عملوا الصالحات خلال مرورهم الزائل على الأرض والتي هي مثابة الحياة لكل اتباع رسالة محمد (ص). فهناك عشرات العبارات التي تتكرر نظير: «جنات تجري من تحتها الأنهار» أو «ماء مسكوب». (الواقعة، 31)، تحت «الظل الممدود لأشجار الجنة». وسورة «البقرة» تُبلغ هذا الأمر إلى الرسول الكريم: «وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار». (البقرة، 25). ونجد تقريباً الكلمات نفسها في سورة «المائدة»: «فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين». (المائدة، 85).

في رأي حميد الله، مترجم القرآن، تبدو هذه العبارات البيانية موجهة إلى بدو الجزيرة العربية الصحراوية لتذكيرهم بمنحدرات سوريا بحدائقها الخضراء ذات الأشجار المثمرة وحيث تنبجس عيون الماء وتجري في سواقي. وهذا شيء مثالي، بالإجمال، بالنسبة لمقيم في مساحات جافة من الصحراء العربية.

انجيل لوقا (X X، 30)، كما كتابات أفرام السرياني (نحو العام 365)، يضيف المترجم، تُعد أيضاً اللذات التي لا يمكن وصفها في الجنة بكلمات أرضية.

يشرب الأبرار في الجنة، «بكأس من معين». (الصافات، 45)، «عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً». (الإنسان، 65).

يستخدم النص القرآني الكلمة العربية «معين» (أنظر الملاحظة رقم 7)، في مقابل «الماء الذي يجري على السطح»، وهي لذة حقيقية، يضيف حميد الله، للذي لا يعرف إلا الماء المالح لآبار الصحراء العميقة، الذي هو غالباً أجاج ومليء بالحديد أو مشبع كثيراً بالملح. وأكثر من ذلك، في سورة الصافات (45 إلى 47) يُبشر الله الأبرار بإعفائهم من قطع المسافات الطويلة للبحث عن عيون الماء البعيدة تحت الشمس الحارقة للصحراء. وفي الجنة ثمة نبع ماء يحمل اسم «سلسبيل»؛ كلمة مؤلفة من «سلس» (سير سهل وهين) و«سبيل» (طريق)⁽¹⁰⁾، أي ماء جارية وعذبة وأخرى هي «تسنيم» وتعني عين ماء وافرة. وأكثر من ذلك، أحد أنهر الجنة يأخذ إسم «الكوثر». في سورة «طه»، وكما يحذر آدم من مكر الشيطان، يطمئنه الله، بأنه في الجنة: «وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى». (طه،

اليوم أيضاً، تقام الصلوات في أرض الإسلام، كما عند اليهود، في حال الجفاف المستمر. حتى أنه في الأعوام الأخيرة، قامت السلطات نفسها في تونس والجزائر بأخذ المبادرة.

(119). ونذكر أن الجنة تملؤها الأنهر والعيون⁽¹¹⁾ ، وليس البحار، لأن النهر رمز الحياة في حين أن البحار كما الصحراء، يقول الروائي المصري جمال الغيطاني: «مساحات لا متناهية، وتأخذ من خلال هذا دلالة ومجازاً مشتركاً، تجتمع من خلاله الأرض والبحر في آن».

ونذكر أن القرآن خص الجنوب الغربي لليمن بسورة «سبأ». هذه المنطقة التي عرفت باسم «العربية السعيدة» (Arabia Eudaimon) والتي يذكرها ديونيسيوس من بين البلاد البعيدة التي زارها بحسب ما يقول يوربيد (Euripide)، خلبت لب البدو بغناها ونباتاتها الخضراء كما في الوفرة التي تتمتع بها، لأنه وحتى قبل العصر المسيحي، كان هناك استخدام للري وجرى بناء سدود أشهرها سد «مأرب» المذكور في الأدب العربي الجاهلي. وغرق السد مثبت في الآية الأنفة الذكر: «فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتاً أكل خمطٍ وأثل وشيء من سدرٍ قليل». (سبأ، 16).

ويبدو أن دمار هذا السد لأول مرة جرى نحو العام 750 قبل الميلاد، ودمار آخر جرى قبل ظهور الإسلام بقليل. وقد اشتغل السد نحو 1500 سنة تقريباً وسمح بري ما يقرب من عشرة آلاف هكتار، أي ما يُطعم 50.000 شخص، وهو رقم معتبر في ذلك العصر⁽¹²⁾ ، ما يفسر اهتمام القرآن بهذا الإنجاز الهيدروليكي، الفريد من نوعه في الجزيرة العربية.

ومن الأعمال التي يرضى عنها الله تقديم المرء الماء لجاره - حتى ولو كان عدواً -، والشريعة - وللصدفة هي عبارة تعني «قانون الماء» - أقامت «حق الشفة» (الشرب) أو «الحق في إرواء الظمأ» لكل واحد. والقيمة الكبرى الممنوحة لفعل تقديم الماء لأي مخلوق يعكسه هذا الحديث⁽¹³⁾ المنقول من البخاري⁽¹⁴⁾ : «أن امرأة بغي زانية سقت كلباً، فشكر الله لها، فغفر لها، (امرأة نزلت إلى بئر فشربت، ثم سعدت، فوجدت كلباً يلحس الثرى من شدة العطش، فقالت: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ بي، فنزعت خفها، ونزلت البئر وملأته ماءً، ثم عضته بفمها وصعدت، ثم سقت الكلب، فشكر الله لها). ويشدد القرآن أيضاً على الحد المزدوج للماء الذين يمكنه أيضاً أن يُدمر - على سبيل المثل بوساطة الأمطار الرعدية والبرد أو الفيضانات - ويسمح بمعاقبة الكافرين. وعلى هذا النحو، تبشر سورة «الأنعام» الرسول: «وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون». (الأنعام، 70).

لقد أنزل الله سورة سبأ
في أهل جنوب غربي
اليمن. فإن تلك البقعة
المزدهرة في الصحراء
العربية والتي ذكرها
ديونيزوس من بين البلدان
البعيدة التي زارها، فقد
أذهلت عقول البدو بفضل
خضرتها ووفرة الزرع فيها
وذلك لأنه كان يتم ربيها،
حتى قبل العهد المسيحي.

وفي الواقع، عند العرب الوثنيين، كان العذاب يتم بالماء شديد السخونة، وتنقل سورة «الشعراء» أن اله يُعاقب الشعوب المشركّة بوساطة هواطل كارثية: «وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين». (الشعراء، 173).

ويروي كتابة سيرة الرسول محمد (ص) انه وفي عمر 35 سنة عايش تدمير الكعبة بسبب حريق تبعته أمطار رعدية.

دين لا يمكنه أن يستغني عن الماء

يؤدي الماء دوراً أساسياً في التقيد بالتعاليم الدينية. ويمكن الذهاب إلى حد القول، انه ومن دون هذا العنصر تغدو الممارسة اليومية للإسلام شبه مستحيلة. في الواقع، وبعد علاقة جنسية، على المسلم (أو المسلمة) الإستحمام من الرأس وحتى القدمين (الغسل)، عموماً في الحمام، كمكان منادمة يحتل مقاماً عالياً، حيث تلتقي الجماعة المسلمة بوصفها كذلك حول الماء المطهر. هذه القيم والتمثيلات القرآنية للماء تتوافق - في هذا النوع من المؤسسات - مع الممارسات المحلية المختلفة سواء في المغرب أم الشرق الأوسط وغيره من الأماكن في العالم الإسلامي. وفي شكل خاص، على المرأة وفي نهاية العادة الشهرية، أن تقوم بالغسل وكذا الأمر إثر الولادة. هذا الإغتسال الكامل مطلوب أيضاً من الجنسين للتقيد بالصلوات اليومية، والصوم المفروض في شهر رمضان وللعمرة وللحج إلى مكة المكرمة⁽¹⁵⁾. فلا يمكن التوجه نحو الله بجسم منجس، والماء عنصر التطهير بامتياز: التطهر بالماء - حتى مجازياً - شيء لا يمكن الاستغناء عنه في التواصل مع الله. ومن أجل دخول المسجد أو أداء الصلوات الخمس المفروضة، يجب القيام بالضوء الذي نصت عليه سورة «المائدة» (المائدة، 6).

الماء ضروري إنذاراً لطهارة الجسد والنفس، ولكن وفي حالات الضرورة القصوى، يجب التطلع أقله إلى النفس وتقديم الدليل على الخشوع واللجوء إلى الغبار أو إلى الرمل غير النجس. طهارة النفس وطهارة الجسد يسيران في الإسلام يداً بيد ويكمل أحدهما الآخر من أجل أن يحظى المسلم بحال هناء نفسية وتناغم داخلي ملائم للتواصل مع الله.

الوظيفة الأخلاقية للوضوء تجتعبيرها الواضح في الصيغة الموجهة إلى الله والتي تأتي في ختام طقس الطهارة: «أشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين».

وقد قونن علماء الشريعة بدقة متناهية كل النقاط الخاصة بهذه التعاليم

يلعب الماء دوراً رئيسياً في
تقيد المرء بالمبادئ
الدينية إلى حد يمكن
القول بأن تطبيق التعاليم
الإسلامية اليومية قد
يكون شبه مستحيل مع
غياب هذا العنصر.

القرآنية بالإستناد إلى ما كان يقوم به الرسول في أثناء حياته. ووصفوا بخلاف ذلك، بتفاصيل مذهلة، ليس كيفية القيام بالوضوء فحسب، بل أيضاً كمية الماء الذي سيستخدم، وبذا حدد الكميات اللازمة.

يوصي القيرواني⁽¹⁶⁾، الفقيه الأندلسي من القرن العاشر، المؤمن بأن يغسل يديه ثلاث مرات قبل أن يغطسها في الوعاء الحاوي لماء الوضوء. ويوصيه أيضاً بأن يمضمض فمه ثلاث مرات، وأن يستنشق الماء ثلاث مرات من أنفه ويعيده إلى الخارج من خلال منخريه (أي يستنثر أنفه) وأن يمرر الماء على الأجزاء الداخلية والخارجية لصيوان الأذن.

لماذا هذه العناية الفائقة بالوضوء عند المسلم؟

بداية، لأن الرسول منحه أهمية كبيرة في قوله: «الوضوء نصف الإيمان»، كما قال «أن تكون مسلماً، يعني أن تكون نظيفاً» (نقلاً عن ابن ماجة)⁽¹⁷⁾. وتالياً، لأن القيرواني كتب في رسالته الشهيرة: قال الرسول في حديث: «من توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها يشاء».

ويتابع الفقيه (بما معناه) (من يُصلي يعهد بأسرار قلبه إلى ربه وعليه أن يتحضر لهذا الفعل بالوضوء أو الطهارة بالإغتسال، في الحالة التي يكون فيها واجباً... يجب أن يكون الوضوء في سبيل الله وإمتثالاً لأوامره وابتغاء لمرضاته وثوابه، وأن يتطهر بهذا الفعل من الذنوب وعلى المؤمن أن يتيقن بأن هذا مقدمة وفعل طهارة يسمح له بالمثل بين يدي ربه من أجل التعبد التام والخشوع أمامه بالركوع والسجود. يجب عليه أن يؤدي هذا الفعل رغبة منه وينفذه بعناية، لأن الكمال في كل فعل مرتبط بصدق النية).

على الماء المخصص للطهارة أو للوضوء أن يكون صافياً «غير ممزوج بأي نجاسة». وقد خضع لون الماء ورائحته للنقاش من علماء الشريعة⁽¹⁸⁾ وأيضاً حجم الخزان الذي يحويه. فسؤال كمية الماء المستخدم لأغراض الوضوء والإغتسال كان موضع عنايتهم ونظرهم.

لنستمع مرة أخرى لفقيهنا الأندلسي: «يجب استخدام القليل من الماء عند التطهر (وضوء أو اغتسال). فالإستخدام بإسراف هو شطط وممارسة منافية للسنة. فقد أدى رسول الله وضوءه بمد [نصف ليتر من الماء] والطهار بالإغتسال بواسطة حاو للماء فيه أربعة أمداد [ليترين]».

الماء ضروري لطهارة الروح والجسد ولكن في الحالات القصوى، يجب أقلها التطلع إلى نقاء الروح من خلال إظهار الخضوع والللجوء إلى التراب غير المدنس.

عدم تبذير الماء ليس في الواقع إلا وصية من النص القرآني الذي يأمر: «يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين». (الأعراف، 31).

ويمكن المحاججة بانه من الطبيعي في الظروف الهيدروليكية للجزيرة العربية، أن يدعو الدين الجديد إلى مراعاة الموارد، لأن الحفريات الأثرية تثبت كما حصل في مدينة بترا، انه وحتى في حال استقرار الرُّحل في الحضر «فانهم لا يفقدون حسهم في اقتصاد الماء»⁽¹⁹⁾. وفي الواقع، يتعلق الأمر هنا بموقف مبدئي. إذ أن النبي نهى عن تبذير هذا المورد الثمين حتى ولو كان وافراً، لأن حديثاً له نهى المسلمين عن «الإسراف في الماء ولو كانوا على نهر جار».

وأكثر من ذلك، ثمة حديث ينقله أبو داود عن الرسول ينهى فيه: «عن البول في الماء الراكد وعن قضاء الحاجة على قارعة الطريق وفي ظل الناس وفي موارد الماء»⁽²⁰⁾.

وإنطلاقاً من هذه التوصيات، دان باستمرار علماء الشريعة وأصحاب الأمر في أرض الإسلام وغرموا، أولئك الذين يبددون ويلوثون ويهملون المنشآت الهيدروليكية. وفي عدة بلدان إسلامية، يجد التشريع الحديث الخاص بتلوث المياه جذوره ومبرراته في هذه الأوامر⁽²¹⁾.

الدور التطهيري للماء في الإسلام، للجسد كما للنفس، قد جرى التشديد عليه أيضاً من خلال توصية هذا الدين بالوضوء في عدة ظروف: عندما نكون في حالة غضب، قبل النوم، قبل الأكل أو في حال لمس جثة أو نقلها، حين نشاهد كسوفاً للقمر. عندما نتعرق، بعد فقدان الوعي أو الإغماء. عندما نذبح حيواناً مخصصاً للإستهلاك، عندما نتلو القرآن أو نروي الحديث، عندما نتابع درساً في العلوم الدينية، عندما نزور مسجداً أو عندما نزور مقبرة.

والحال، فإن الرسول يوصي، بحسب ابن مسلم، بأخذ حمام مرة في الاسبوع خارج إطار الفرائض الدينية التي توجبه (في غياب العلاقة الجنسية أو الطمث).

أخيراً، وفي حال الوفاة، يعتبر غسل الجسم - فريضة دينية - كأفضل تكريم لروح الميت. وفي بلدان اسلامية عدة توضع أباريق ماء في الطريق الذي سيسلكه المأتم من أجل أن يشرب الناس ويدعون بالخير والرحمة لروح الميت.

ويمكن أن نسجل، انه كما في الإسلام، ثمة كثير من الطقوس اليهودية تهدف إلى غسل النجاسة (مثل الغطس التطهيري Teyila)، وفي التوراة حُصص «سفر

أمر القرآن بشكل صارم وحازم بعدم هدر المياه. « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين (31) » (سورة الأعراف).

اللاويين» (الأخبار) للتعداد الدقيق لقواعد الطهارة والنواحي الجنسية... وأكثر من ذلك، يؤدي الماء دوراً رمزياً كبيراً في اليهودية وخصوصاً في اللحظة الأكثر تبجيلاً من الروزنامة اليهودية «الأيام العشرة الرهيبة» والتي تذهب من «روش حاشانا» (رأس السنة) العام الجديد إلى «يوم كيبور»: نطرح الأخطاء والكبائر والهفوات والشكوك في الماء. إنه الاحتفال السنوي لـ «التشليخ» (Tachlikh) (تغطس) والذي هو في أساس طقوس الطهارة: على ضفاف نهر أو بئر، نقوم بقلب الجيوب (الخاصة بالثياب) أو نهز محرمة للتخلص من الخطايا والذنوب.

من الطبيعي أن تجد هذه الأوامر - المذكورة آنفاً - ترجمة لها في الحياة اليومية للمسلم وتؤسس لديه ثقافة الماء.

بين السلطة والدين والحضارة والهيديروليك صلات قوية معقودة عند شعوب عدة خلال التاريخ، والإسلام لم يُخلِ بهذه الصلات، ثمة حديث يعلمنا: «المسلمون شركاء في ثلاثة: الماء والكلاء والنار»⁽²²⁾.

ونجد لدى بعض مفسري القرآن، انه ومن أجل تأمين الماء لأتباع الدين الجديد وتجنب سيطرة شخص أو قبيلة على المورد، شجع محمداً (ص) عثمان⁽²³⁾ على شراء بئر «رمة» وجعله وقفاً (حبوس) لمصلحة الجماعة والأجيال اللاحقة. وقد تبنى في ما بعد فرعا للإسلام الرئيسيين - السنة والشيعية - المبادئ العامة للنزاعات المحلية لحل المواقف المعقدة ذات الصلة بحق الشرب والريّ وبيع ونقل حيازة الماء. وليس في نيتنا الإبداء بالمعالجة التامة لهذه المسائل، نظراً لضخامة النصوص الدينية والإدارية... والفقهية المتراكمة خلال العصور. لذا، سنكتفي بفتح بعض الدروب أمام القارئ بغير اللسان العربي.

على هذا النحو، يؤكد القيرواني (بما معناه): «إن فائض الماء [من النبع] لا يجب حجزه لمنع الناس من الرعي. يمكن لأولئك الذين حفروا الآبار لمواشيهم أن يحوزوا أفضلية استخدامها. يستفيدون هم أولاً، وبعد ذلك يكون لكل الناس حقوق موازية. ولكن] يمكن لمن يملك في ملكه نبع أو بئر، منع الآخرين من استخدامه، إلا إذا أصبح بئر جاره غير صالح للإستعمال ويملك هذا الأخير زراعات معرضة للتلف. في هذه الحالة، لا يسعه رفض تقديم الفائض من مائه. ولكن، هل على الجار أن يدفع ثمن الماء؟ المسألة موضع جدل».

نحن إذاً أمام إشكالية جرى بحثها ونقاشها في شكل مخصوص، لأن الشريعة تميز بين ثلاثة أنواع من الماء: الماء الجاري (الأنهر) وماء الآبار المحفورة بيد الإنسان وماء الينابيع الطبيعية (والتي أحياناً ما يهيئها ويعدها الإنسان). طبيعة المياه واستغلالها أنتجت خلال مجرى التاريخ تشريعات معقدة جداً

قام المذهبان الرئيسيان في الإسلام - السني والشيعي - بتكييف المبادئ العامة مع الأحداث التي تطرأ محلياً وذلك لحل مسائل معقدة متعلقة بحق المرء في الإرتواء، والري وبيع المياه ونقلها.

يتداخل فيها بقدر ما الشرع القرآني والعرف والممارسات المحلية.

ففي تونس، إدارة المياه بنظام الفجّارة (قناة جر المياه Foggara) قريبة من «القناة» الإيرانية. وقد سمحت الفجّارة بوجود الواحة. نُشيد فجّارة من خلال حفر ممر كبير في الأرض بعمق بيامون (سهل واقع في سفوح الجبار، وهو باسم منطقة في إيطاليا)، يعني في سفح منطقة جبلية نقيم منحدرًا (pente) قوياً كما هو الحال في جبل أورباطة (orbata). فمياه الأمطار النادرة في تلك المنطقة شبه الصحراوية تدخل إلى البيامون والممر يستخدم بمثابة مصرف لها. مركز التجميع الذي هو الفجّارة يمكن أن يبلغ من كلم واحد إلى اثنين. تقوم العائلات بصون الفجّارة وتحوز الأراضي التي يمكن لهذه الأخيرة أن ترويه بعرض عشرة أمتار (منطقة محمية) وبطول غير محدد طالما أن المنحدر يسمح للماء بالوصول بالجاذبية إلى قطعة الأرض، كما بينته أعمال، جان أوليفيه جوب (J. O. J. O.) وجان البيرجيل (J. Albergel)، في الواحات التونسية.

أما في شأن المجتمعات المسلمة في أفريقيا السوداء، وكما ذكرنا سابقاً، من العسير الفصل بين الشرع الإسلامي والقانون الخاص بالمجتمعات المحلية في ما يتعلق بالماء. وغالباً حين لا يكون هذا الأخير متناقضاً بشكل واسع مع قواعد الشريعة، فإن هذه تُستدخل من جانب المتعلمين في القانون الكنسي (Droit can-on).

ففي النيجر، من يتوصل إلى السيطرة على استخدام نقطة ماء، يسيطر على مناطق الرعي المجاورة، حيث يوجد الغنى الحقيقي. الماء في شكل أساسي يضبط الولوج إلى مساحات الرعي. والوصول إلى المياه عند الرعاة - وهو شيء حيوي - لا يُمنع عن الناس والقطعان العابرة، حتى ولو تطلب الأمر تحديد مدة المرور. نجد هنا تطبيقاً واضحاً لأحد مبادئ الدين الإسلامي: الحق في الشرب موسعاً ليشمل البهائم، والذي هو عملياً المصدر الوحيد لبقاء الجماعات.

وفي كل الأحوال، من الشائع عند العرب منع الجمال الشاردة، من دون صاحب معروف لها، أن ترتوي في نقاط الماء الخاصة بالجماعة، كما يُذكر بذلك - من بين آخرين - خطاب مشهور للحجاج بن يوسف، حاكم العراق (661 - 714).

تبدو هذه الممارسات متوافقة مع التراث الذي ينقل أن عماليق اليمن وبعد أن أصابهم الجفاف ذهبوا بحثاً عن الماء وعن الأراضي الخصبة وبوصولهم إلى جوف وادي رأوا عصفوراً يظهر وكأنه معلق في السماء. فاستنتجوا أنه يبحث عن الماء مع أن المكان مشهور بخلوه منه. فأرسلوا مستطلعاً اكتشف الماء. وكان البئر حيث يوجد هاجر وإسماعيل، فالتمسوا الإذن بالتوقف. قبلت هاجر ولكنها

على مر التاريخ، أدى
الجدل حول طبيعة المياه
وكيفية استغلالها إلى
صدور تشريعات في غاية
التعقيد حيث يرتبط
النص القرآني، إلى حد
ما، بالقانون العرفي
والتطبيقات المحلية.

حددت: «نعم، ولكن ليس لكم حقاً على المياه»⁽²⁴⁾. وقد قبل العماليق هذا الشرط. وفي العصر السابق على الإسلام، وخلال المرور في الجزيرة العربية. كان من الشائع أن تدفع قوافل التجار ثمن الماء كما تدفع ثمن الكلاً، كما يقول رودنسون⁽²⁵⁾.

تغلّب في التراث الإسلامي مصالح الجماعة الكبيرة (المتحد) على تلك الخاصة بالأفراد أو الجماعات الصغيرة، كما هو الحال هذه الأيام في كثير من التشريعات الغربية⁽²⁶⁾. الجماعة هنا هي الأمة. تشير هذه العبارة في النص القرآني، كما في كتابات علماء الشريعة إلى «جماعة المسلمين»، ولكن المعنى المعاصر يرجح كلمة الأمة، المستوردة من الغرب.

في ذكره للممارسات الحالية، يؤكد دانتي كابونيرا: «بالنسبة للإسلام، تقع الموارد الهيدرية (المائية) في إطار المجال العام... وإذا كان مستحيل نظرياً فرض ضريبة على الماء نفسه لأنه هبة من الله، فإنه من المشروع تماماً فرض ضريبة على خدمة الماء أو على تقديمها لمختلف الاستخدامات، مع الحصول على اجازة بذلك. الماء، خير عام، لا يمكن نقله إلى آخرين ولكن النقل في وجهة الإستعمال شيء مشروع. على هذا النحو، إذا أراد مستخدم، كبير أم صغير. يملك اجازة أو امتياز، فإنه يستطيع أن يبادل أو يبيع ماءه مع مستخدم آخر، صغير أم كبير، في حال وافقت الإدارة التي هي القيم على الماء العام... والأوامر الدينية للإسلام لا تقف عائقاً بأي حال أمام الإدارة المناسبة لكل وجوه المورد»⁽²⁷⁾.

في معالجته لمسألة أسواق المياه وتعرفته في إيران. يعني من وجهة نظر الإسلام الشيعي. يؤكد كاظم الصدر، من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة الشهيد بهشتي في طهران، أن الفقه وتوافق العلماء يُعلم بأن مياه سطح الأرض كما تلك الموجودة في محتو، هي إما ملكية عامة وإما ملك الإمام «الحاكم العادل والشرعي للبلاد»، وبالنتيجة يمكن استغلال هذه المياه مباشرة من طرف السلطة العامة أو تسليمها إلى مُشغلين أفراد. ويؤكد الصدر انه في الأيام الأولى للدولة الإسلامية، كان بناء الآبار والسدود والإنشاءات الهيدروليكية ممولاً من الخزينة العامة (بيت المال).

وإذا ما استثمر أحد ما في مشروع للوصول إلى ماء نبع أو نهر، فإنه يحوز أفضلية في استخدام الماء ولكنه لا يستطيع مطلقاً ادعاء امتلاك النبع أو النهر، فهذه تبقى ملكيات مشتركة. وفي كل الأحوال، فإن حقوق المستخدمين الآخرين يجب أن تبقى محفوظة. وهكذا، فالنظام الحاذق للقنوات الإيرانية، التي تستخدم الجاذبية فيها لجر المياه، هو ملكية خاصة لأولئك الذين شيده من دون أن تكون

في ذكرها للتطبيقات الحالية، تؤكد دانتيه كابونيرا بأن الموارد المائية، في الإسلام، مرتبطة بالشعب. فإذا كان من غير الممكن فرض الضريبة على الماء بحد ذاته لأنه هبة من الله، يجوز شرعاً فرض ضريبة على مختلف وجوه استعماله والسماح باستخدامه.

الآبار أو النياابيع كذلك.

ويبدو أن الإسلام الشيعي يتبع نظرية غاريت هاردين (Garret Hardin) التي تؤكد بانه إذا كان للجميع حرية الوصول إلى الملكية العامة، فإن هذه الأخيرة ستُفقد، الأمر الذي لا يمكن تعويضه⁽²⁸⁾. وهو ما يؤكد بيار جنتل (P. Gentelle) في درسه مسألة الماء في صحراء لوط (Lut) الإيرانية، ويضيف هذا الكاتب تحديداً في هذا الخصوص: «بحسب الرسول، إن ملكية نبع ماء، أو قنال أو قناة يستتبع ملكية مساحة من الأرض المحيطة تدعى «حرم» وهو سطح محظور، لا يمكن أحداً أن يحفر فيه» ويستخلص: «لم يفوت الفرس أن يلاحظوا ومنذ البدايات، أن العرب كانوا رُحلاً قبل تعاليم محمد (ص)، ولا يزال في ممارساتهم آثار غير إلهية. وفي ما يخص حقوق الماء تحديداً، فإن المجتمعات الزراعية التي عُزيت كان لديها قواعد الخاصة المعقدة لإدارة المياه التي تعود إلى قرون قبل أن يظهر الرسول. هناك شيء مشترك بين المسلمين وبين الكافرين: في تقاسم المياه من هو في الأعلى «يشرب» قبل من هو في السافلة، بحسب الفقه. فمياه الأعالي لا يمكن أن ترتفع في قنال أعلى من وتد». وهو دليل في هذا المجال الحساس جداً، بأن أحداً لا يمكنه محو الماضي والتاريخ، وأن ثقافة وحضارة (ما) مصنوعة من مساهمات مختلفة وزيادات متتابعة، والتي بتمازجها وذوبانها تشكل وحدة خالصة وجديدة، ومن خلالها يعبر الفكر الإنساني عن حذاقته وعن تكييفه المستمر.

ويوضح الصدر أن نقل وتوزيع المياه يمكن أن يجريه القطاع الخاص ويضيف: «إذا تغلبت القواعد والقيم الإسلامية في داخل السوق، فعلينا أن نتوقع أن يكون السعر المحدد فاعلاً. هذا السعر سيستخدم كمرجع إذاً بالنسبة للماء الموزع والمباع من جانب القطاع العام وعليه أن يمكن من الاستعادة الكلية للأكلاف التشغيلية. في الممارسة، يجب ألا يحصل أي تمييز خلال تثبيت السعر. هذا الاقتراح يتوافق مع قواعد النظام الشرعي الإسلامي الخاص بإدارة وتوزيع المياه في إيران»⁽²⁹⁾.

لنذهب إلى المقلب السني الآن، فالجزائر بلد مسلم حيث توجد صعوبات فائقة للتزود بالماء، ووزير الموارد المائية، عبد الملك السلال، اعترف في مقابلة لصحيفة «الوطن» (23 تشرين الثاني/نوفمبر 2004) انه في العاصمة: «... لا يوجد إلا الشطر الشرقي الذي يتلقى الماء 24 ساعة على 24، واقسام الوسط والغرب لا تتغذى بالماء بانتظام. حالياً، يحصلون على الماء كل الأيام ولكن لوقت قصير... وقد باشرنا أعمال تجديد شبكة الجزائر العاصمة. الجزء الكبير أنجز، ولكن

يبدو أن المذهب الشيعي
يعتمد نظرية غاريت
هاردين الذي يقول بأنه إذا
ما قام الجميع باستخدام
الملكية العامة، فسوف يتم
فقدانها بشكل نهائي.

الوضع لا يتحسن أبداً».

هذا الوضع مستمر منذ عقود وهو ليس النصيب الحزين للأسف، لا لبلدة للجزائر وحدها أو لهذا البلد العربي - الإسلامي وحده.

في بحوثه عن العالم العربي خصوصاً، يكتب جان بول بورد (J. P. Bord) «التوقعات المتوسطة للأمم المتحدة تدرج من ضمن بلدان عليها أن تعاني نقصاً في الماء أو شحاً في العام 2025، جزءاً كبيراً من دول العالم العربي (ما عدا موريتانيا والسودان والعراق). إنه في كوكبنا، الفضاء (يقصد العالم العربي) الأكثر تأثراً بمشاكل الماء. وحتى لو أن التطور مختلف بحسب البلدان، فمن الآن إلى العام 2025، سيعيب نقص المياه الغالبية العظمى من بلدان العالم العربي»⁽³⁰⁾.

ما العمل؟ بعد أن أوضح الوزير الجزائري بأن «الماء، هو ثروة الجماعة (المتحد)»، أعلن عن بدء العمل بورشة من أجل انجاز ترسانة قانونية مثل: «لن يكون الماء بعد اليوم منتجاً مجرداً من دون أي قيمة. مع قانون الماء، سيكون لهذا الأخير قيمة اجتماعية وتجارية».

يمنح القرآن - كما التوراة، مكاناً استثنائياً للماء. ففي الجنة، الماء هو مكافأة المسلمين الأتقياء وهو موجود بوفرة. فكثيرة هي الينابيع والأنهر في جنة عدن. وهو ضروري للتقيد بالطقوس، والعنصر السائل هبة من الله وبركة إلهية.

مثابة عنصر أول، يفتح الماء باباً إلى المقدس والتعالى. ندرته أو غيابه تعزا إما إلى السلوك السيء للبشر أو ادارتهم غير الملائمة للمورد. لأن الله اعطى كل شيء بمقدار. وقد طلب من المسلمين استخدام الماء من دون اسراف و ذم المسرفين. وأزيد من ذلك، الله يحض المؤمنين على الإدارة الرشيدة لهذا العنصر الحيوي علماً أن العالم العربي، على سبيل المثل «مساحة تسيطر عليها الصحراء والبحث عن الماء، إلا عرضياً».

تتفق مختلف المدارس الدينية على عدة نقاط في شأن إدارة واستغلال المورد لمصلحة الجماعة وضمن احترام لحقوق الذي يقدم عملاً، من مثل ضبطه أو إجرائه في قناة وجعله متوافراً.

في المجال التطبيقي، لا نلاحظ وجود أي تمييز عند تحديد السعر وهو ما يعد مطابقاً لمبادئ النظام الشرعي الإسلامي، ولإدارة وتوزيع المياه في إيران.

الهوامش

- (1) استخدمنا ترجمتان للقرآن: واحدة لمحمد حميد الله (بالتعاون مع ميشال لوترني (M. Leturny)، (Club français du livre, Paris 1959) وأخرى لجاك بيرك (Paris, Sindbad, 1950).
- (2) أنظر على سبيل المثال، رضوان السيد، مجلة «بدائل» (بيروت) العدد 2، خريف 2004، ص 28-29.
- (3) بالنسبة إلى حميد الله «يبشر الهواء بالمطر، وهو شيء يرى في البلاد الجافة بأنه أحد مظاهر الرحمة الإلهية. ففي سورة «النمل» نجد أيضاً مسألة الريح: «أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أهله مع الله تعالى الله عما يشركون» (النمل، 63). ولكن، بما أن الكافرين لا يشكرون الله على رحمته الإلهية مثل المطر، فإن الله يعاقبهم: «ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون» (الروم، 51).
- (4) "Water management in Islam", edited by Naser Faruqi, Asit K. Biswas and (4) Murad Bino, United Nations University Press, Tokyo, 2001.
- (5) هذا النوع من التذكير موجود أيضاً في سورة المرسلات، 20، وفي سورة «الحج»، 5.
- (6) بالنسبة إلى حميد الله، يلمح القرآن إلى معركة بدر الشهيرة (العام الثاني للهجرة، 623)، وهي انتصار محقق للدين الجديد وفي أثنائها هطل المطر. المعسكر الإسلامي كان قائماً على الرمل، فأصبح هذا الأخير أكثر شدة (متجنباً هكذا الغبار خلال المعركة)، بينما كان العدو القرشي في أرض مليئة بالطين الذي وتحول إلى وحل معيقاً حركة الرماة والخيالة.
- (7) عبارة «معين» المستخدمة في هذه الآية تعني الماء «الجاري على وجه الأرض» (حين يجري الماء جرياً سهلاً فهو معين)، والذي يظهر في القرآن كما يقول بيرك في شأن عيسى المسيح (سورة المؤمنون، 50)، يجب الإشارة إلى الغنى غير المسبوق للغة العربية في ما يتعلق بالعبارات ذات الصلة بالماء، والآبار والغيوم... الشاعر الفلسطيني محمود درويش أحصى ما لا يقل عن 110 لفظة لقول كلمة «ماء» في اللغة العربية. (محمود درويش، «ذاكرة... للنسيان» المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 1990، ص 46-47). وفي العبرية، الماء الذي يقال له «ماتيم» (Ma'im) جمع مؤنث.
- (8) ولكن شهدنا في استنبول - التي أصيبت عام 1994 بجفاف استثنائي - نقاشاً هامياً بين أنصار «المطر الديني» و «المطر الصناعي»، حيث يحدث هذا الأخير بواسطة حقن الغيوم ببلورات من نترات الفضة. (موسى اكدمير M. Akdemir «استنبول العطشى تدعو السموات» صحيفة ليبراسيون، تموز/ يوليو 1994، ص 15).
- (9) ترجمة حميد الله مختلفة قليلاً عن تلك الخاصة ببيرك «ونبئهم أن الماء قسمة بينهم... نعم، لكل دوره في الشرب» ويضيف هذا الكاتب «في التراث الإسلامي لكل قبيلة من الاثنتي عشرة ممره الخاص كما نبع الماء في الصحراء».
- (10) بعد إكمالها الحج عام 808، واجهت زبيدة، زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد، الصعوبات التي تعترض الحجاج للتزود بالماء. فأمرت ببناء قناة على نفقتها الخاصة لجلب الماء من عين حنين في مكة.
- هناك شيء من المفيد تسجيله، حالياً في بعض البلدان المسلمة (الكويت، المغرب) كلمة «سبيل» تعني نقطة ماء موضوعة من طرف محسن تقي في تصرف المارة. في الكويت هذه النقط مبردة وتحمل اسم المحسن (وغالباً ما تكون محسنة). وفي المغرب غالباً ما تكون مزينة. وتقديم الماء يقدر عالياً في كل العالم الإسلامي.
- (11) غالباً ما يصاحب الماء تمثيل الجنة. عدن، حديقة اللذات - حيث عاش آدم وحواء - هي مصدر الأنهار الأربعة: سيحون وجيحون (أخذوا غالباً على أنهما الغانج والنيل)، ودجلة والفرات. أما الجنة اليابانية (Amer)، فتقع في مكان عال بعيد من الأرض، يسقيها نبع هادئ هو «المجرة». وأخيراً، الجنة

عند قدامى المصريين هي حقل القصب، رؤى مثالية لمشاهد أليفة على ضفاف النيل.
(12) كتب بيار جنتل (P. Gentelle) في هذا الشأن: «منذ العصور القديمة، ومأرب موضوع إعجاب من الكل، بسبب السد الذي يتخلل الوادي، ولهذا السبب، ندعو أحياناً بالسد... الآثار الباقية والتي يمكن ملاحظتها اليوم أيضاً ولا تزال تشكل وسيلة حاذقة لالتقاط الماء الذي يجري من غير فائدة نحو الصحراء، وهذه الآثار لا تزال تحيّر أصحاب المعرفة. ومثل هذا العمل لم يذكر مصادفة في القرآن، علماً أن القرآن لاحق على التدمير النهائي للسد». من (Traces d'eau. Un géographe chez les archéologues, Belin, Paris, 2003).

(13) أخبار منقولة من جانب عدد كبير من السلاسل الشفوية تروي أفعال وأقوال الرسول. يمثل الحديث عند المسلمين سلطة تأتي مباشرة بعد القرآن.

(14) يعد البخاري (879 - 810) من أكبر جامعي الأحاديث ويُجَل كما لو كان قديساً. نقل صحيحه إلى اللغة الفرنسية عام 1904.

(15) يتضمن طقس الحج محطتان: الصفا والمروة والتي تذكر ببحث هاجر، زوجة النبي إبراهيم، عن الماء حين طردتها سارة إلى الصحراء. واليوم الأهم في الحج هو «الوقوف» والذي ينتهي بعد غروب الشمس بإفاضة الطواف. وطقس الإفاضة ما قبل الإسلام، المتعلق بالإعتدال الخريفي، يقوم على التوجه نحو مقام الإله «قزح» موزع الماء والعاصفة والمطر المدرار. وفي أثناء الحج كما في أثناء الصوم تمنع العلاقات الجنسية.

(16) ابن زيد القيرواني: «الرسالة» وهي «رسالة عن عناصر عقيدة الإسلام بحسب المذهب المالكي». النص باللغة العربية متبوعاً بترجمة ليون برشييه (L. Bercher)، المكتبة العربية-الفرنسية، الجزائر 1951.

عبد الحميد سلامة، مسألة الماء في العالم العربي القديم منذ البدايات إلى نهاية القرن الحادي عشر (هـ)/السابع عشر ميلادي. بيروت، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٤ (باللغة العربية).

(17) «الماء والقضايا المتعلقة بالصحة»، منظمة الصحة العالمية (WHO)، الإسكندرية (مصر)، المكتب الإقليمي لشرق المتوسط، 1996.

(18) هؤلاء الأخيرين قوننوا حتى طريقة الشرب. أوجين فرومنتان (E. Fromentin) الذي قطع الصحراء الجزائرية عام 1878 وصف «ضيافة» دعي إليها، وينقل هذه التعاليم: «على من يشرب ألا يتنفس في القدح حيث يوجد المشروب، يجب أن يبعده عن شفاهه كي يأخذ نفساً، ومن ثم يعاود الشرب» (في «صيف في الصحراء»، باريس، دار نشر بلون (Flon)، 1879). وهو قريب جداً مما كتبه ابن ماجه، أحد أكبر جامعي الأحاديث، بحسب الرواية التي يقدمها الفقيه القيرواني (الملاحظة رقم 16): «أثناء الشرب، لا تتنفس في الوعاء الذي تشرب منه، ولكن أبعده عن فمك ثم عاود الشرب إذا شئت. لا تبلع الماء دفعة واحدة ولكن في جرعات صغيرة متدوفاً لها... يحظر النفخ على الأكل أو على المشروب. وينهى عن الشرب في أقداح ذهب أو فضة».

(19) Pierre Gentelle, "Traces d'eau. Un géographe chez les archéologues", Belin, Paris, 2003.

(20) في الظل يرتاح الناس ويبحثون عن البرودة.

(21) أنظر في الملاحظة رقم (4) مساهمة ناصر فاروقي -Islam and Water management: over-view and Principles".

(22) الملاحظة رقم (4). ويمكن التسجيل هنا أن الوزير السوري للموارد المائية والري استعان بهذا الحديث ضد تركيا (من دون أن يسميها) في تصريح نقلته الصحيفة القاهرية «الأهرام»، 6 أيار/ مايو 1997، في شأن صعوبة التوافق على حصص ماء نهر الفرات. الأمر الذي يثير العجب لأن السلطة في دمشق تنسب نفسها إلى حزب البعث، وهو حزب علماني أسسه المسيحي ميشال عفلق. ومن جهة أخرى، فإذا كانت تركيا ذات أغلبية مسلمة إلا أنها علمانية في العمق منذ تأسيسها عام 1923 من طرف

أمر الله عباده المسلمين

بعدم الإسراف في

استخدام المياه وإلا

عوقبوا. وكذلك دعا

المؤمنين إلى حسن إدارة

هذا العنصر الحيوي سيما

وأن العالم العربي، على

سبيل المثال، مكان تكثر

فيه الصحاري وعمليات

البحث عن الماء باستثناء

البلدان الواقعة على

أطرافه.

مصطفى كمال أتاتورك.

(23) الخليفة الثالث من 644 إلى 656.

(24) محمود حسين «السيرة. رسول الإسلام كما يرويها الصحابة» (باريس، غراسيه، 2005)، ص 91.

(25) ماكسيم رودنسون «الإسلام والرأسمالية» (باريس، سوي، 1996).

(26) في مناسبة صراع على الماء، حسم قرار من المحكمة العليا في هاواي، في آب/أغسطس 2000، المعركة لمصلحة الجماعة وعلى نفقة المالك.

(27) الملاحظة رقم (4).

Garrett Hardin, "The tragedy of the commons", Science, n162, 13 décembre (28)
1968, P. 1243 - 1248.

(29) ملاحظة رقم (4).

(30) جان-بول بورد (F. P. Bord) «العالم العربي من الفضاءات الجغرافية إلى التمثلات الخرائطية»، أطروحة دكتوراه في الجغرافيا، جامعة فرنسوا رابليه، تور (Tour)، كانون الأول/ديسمبر 1998.